حضور الآخر في الحوار النبوي مع الزعامة الدينيّة

الأستاذ حرّاث بوعلاقي [*]

لقد اهتمّ المفكّرون منذ النصف الثاني من القرن العشرين بأدب الحوار بين الأديان ظنّا منهم أنّ هذا النوع من الأدب الديني هو وليد العصر لما يدلّ عليه من تطوّر في مستوى العلاقات بين المجتمعات المتدينة عامة وبين المسلمين وشركائهم في الديانة السماوية خاصة. ويعبّر عن هذا التطوّر بالخروج من مرحلة الصّدام إلى مرحلة الحوار الأمر الذي غرس في الوعي الجماعي أنّ الإنسانيّة قد حقّقت اليوم من الوئام والتعايش المشترك ما لم يتسنّ لها طيلة عصور مضت.

ولتصحيح هذا المفهوم السائد لا بدّ من الرجوع إلى مرحلة بداية الحوار في الفكر الإسلامي لنتمكّن من المقارنة الموضوعيّة بين اليوم والأمس.

نحن نعرف أنّ هذا النوع من الأدب المعبّر عنه بأدب الحوار بين الأديان يرتبط بما يعرف بعلم مقارنة الأديان الذي نشأ في شكله الواضح مع بداية الدعوة الإسلاميّة. يقول الأستاذ آدم متز : «إنّ أكبر فرق بين الإمبراطوريّة الإسلاميّة وبين أوروبا التّي كانت كلّها على المسيحيّة في

(*) أستاذ محاضر بالمعهد الأعلى للحضارة الإسلامية (جامعة الزيتونة - تونس) وهو حاليا مدير مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان.

العصور الوسطى وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين... واستند أهل الذمّة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود وما منحوه من حقوق فلم يرضوا بالاندماج في المسلمين... بل كان وجود النصارى بين المسلمين سببا لظهور مبادىء التسامح التّي ينادي بها المصلحون المحدثون، وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق ممّا أوجد أوّل الأمر نوعا من التسامح الذي لم يكن معروفا في أوروبا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان أي دراسة الملل والنحل على اختلافها. والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم» [1].

إنّ ارتباط علم الدين المقارن بالإسلام يعود في الأصل إلى أنّ الدين المحمدي هو أول دين اهتمّ بالمعتقدات الأخرى واعتبرها طرفا حاضرا، وتحاور معها، لأنّ الأديان السابقة للإسلام كتابيّة كانت أو وضعيّة تتّصف جميعها بعدم الاندماج مع الآخر، ورفضه وعدم الاعتراف به وهذا مرجعه الخصومة التقليديّة بين مختلف الجماعات الدينيّة.

ولّما جاء الإسلام وجد أرض الحجاز تعجّ بالمعتقدات المتنافرة التّي يمكن حصرها رغم تعدّدها في مظهرين اثنين :

- أديان بدائيّة تجتمع على الشرك [2]

(1) آدم متز، الحضارة الإسلاميّة، الدار التونسيّة للنشر ط1. 1986 ـ 1/71.

(2) من أهمّ وابرز مظهر للمعتقدات البدائيّة المجتمعة على الشرك في منطقة الحجاز، نجد عبادة :
الأصنام : وهي ما صنع من خشب أو معدن في صورة إنسان من أجل العبادة.
الأوثان : وهي ما نحت من حجارة على صورة إنسان للتّقديس والعبادة.
والنصب : وهي أشكال من حجارة غير منحوتة.
والصابئة : وهي عبادة الكواكب ظنّا من معتنقيها أنها في علوّها اقرب موضعا من الإله المعبود.
وهذه جميعا هي وسائط في حقيقتها للتقرّب من الإله المعبود. وقد تحدّث عنها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:
* ربّ اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام (إبراهيم 35/14).
* فاجتنبوا الرّجس من الأوثان واجتنبوا قول الزّور (الحجّ 30/22).
* إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون (المائدة 90/5).
* إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنّصارى والصّابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربّهم (البقرة 62/2).

- أديان منزّلة كتابيّة [3]

ويكفي للتعبير عن عدم الوفاق والانسجام بين أصحاب هذه المعتقدات ما كان بين اليهود والنصارى من عداء بدأ مع ظهور السيّد المسيح، وتعاظم مع أتباعه، لأنّ اليهود يرفضون كلّ دين يتعارض مع مصالحهم، والنصارى ملّوا العيش مع اليهود لسوء ما لحقهم منهم. وفي ظلّ الصراع المستمرّ لم تتهيّأ الظروف الطبيعيّة للحوار، فاليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحبّاءه، والنصارى يدّعون أنّهم أصحاب رسالة الكمال لما وجدوه في كتابهم من أنّ السيّد المسيح جاء ليكمّل. جاء في إنجيل متى «لا تظنّوا أنّي جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمّل» [4].

وجاء عن قسّ طليطلة إلى أبي عبيدة الخزرجي قوله: «فإن أردت أن يتغمّدك الله برحمته وتفوز بجنّته فآمن بالله وقل إنّ المسيح ابن الله الذي هو الله والروح القدس ثلاثة أقانيم في أقنوم واحد فستنجح وترشد. أمّا دينكم فقد ألّف كثير من أساقفتنا كتبا في الظنّ فيه، فرأينا أنّكم لستم على حقّ، وإنّما الحقّ معنا، ولا فائدة في شريعتكم، لأنّنا نجد الأحكام حكمين التوراة والإنجيل ولا نجد لهما حكما ثالثا [5]».

إذا كانت كلّ ديانة ترفض ما جاء بعدها وتعيش قطيعة وخصومة مع ما سبقها فإنّ هذا الموقف فرض نوعا من الصّدام بين الحساسيّات الدينيّة بلغ حدّ رفض الآخر مطلقا قال تعالى: «وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتِ

(3) الأديان السماويّة التّي كانت موجودة على أرض الحجاز: الحنفيّة واليهوديّة والمسيحيّة. قال تعالى:

* ومن أحسن دينا ممّن أسلم وجهه لله وهو محسن واتّبع ملّة إبراهيم حنيفا (النساء 125/4).
* ولن ترضى عنك اليهود ولا النّصارى حتّى تتّبع ملّتهم (البقرة 120/2).

(4) إنجيل متى: 17/5

(5) أبو عبيدة الخزرجي، الإسلام والنصرانيّة المعروف بمقامع الصلبان ص 61 - 73 (بتصرف).

النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ[6].

وعلى أرض الحجاز التّي كانت نموذجا لصراع الأديان بدأت النشأة الأولى لرسالة الإسلام التّي أضفت حركيّة جديدة على الظاهرة الدينيّة في المنطقة، وبدأت الزعامة الدينيّة تعبّر عن حضورها بقوّة ممّا ولّد نوعا من الأدب الديني لم يعرفه الفكر الإنساني طيلة مسيرته التاريخيّة سمّي في وقت لاحق بأدب الحوار بين الأديان. هذا النوع من الأدب هو الذي شغل فكرنا المعاصر حتّى استقرّ في الوعي الجماعي، وأنّ حوار الأديان من خصوصيّات هذا العصر، وأنّ هذا الحوار هو نتاج لمسيرة متقدّمة طبعت بالصّدام عوض الحوار، وأنتجت الخلاف والفتنة عوض الوفاق والمودّة. وبالحوار حقّقت مجتمعاتنا اليوم نوعا من التقارب نتيجة ما وصل إليه المثقف في عصرنا من نضج في التفكير، وموضوعيّة في الطرح، وبهذا التصوّر الحضاري خرج فكرنا من مرحلة الجدل والتهريج ليدخل مرحلة الحوار الهادف.

إنّ حكما كهذا لا يبدو منطقيّا إلاّ بالرجوع إلى النشأة الأولى لأدب الحوار حتّى نتمكّن من المقارنة ومعرفة ما حقّقه فكرنا المعاصر من تجديد وتطوير في أساليب تقدّم الحوار. وبما أنّ الإسلام هو الدين الوحيد وبدون منازع من بين الأديان السابقة الذي أعطى حضورا واعتبارا للآخر وتحاور معه، فلا بدّ من الرجوع إلى الحوار النبوي كمثال عملي ناجح للحوار بين الأديان وحتّى يتّضح هذا لا بدّ من الإجابة عن الأسئلة التالية :

ما حقيقة الحوار النبوي ؟ ومن هم أطراف الحوار الرئيسيّون ؟ وما هي خصوصيّة هذا الحوار ؟ وكيف أنّه :

* حوار يقوم على احترام الآخر.
* حوار يقوم على مبدأ التسامح.

وأخيرا ما هي طبيعة المنهج النبوي في حواره مع الزعامة الدينيّة ؟.

(6) البقرة : 113/2.

I ـ الحوار في فكرنا المعاصر :

إنّ الحوار النبوي مع الزعامة الدينيّة لا تتّضح صورته إلاّ بمعرفة المراد بالحوار في فكرنا المعاصر وفي التصوّر النبوي لاختلاف مرجعيّتهما. فالفكر المعاصر أسس مفهومه للحوار على المرجعيّة اللغويّة ففصل بين الحوار والجدل ليعبّر عن طبيعة العلاقة بين اليوم والأمس، فاليوم نجد حوارا وبالأمس كان الجدل وشتّان بين الحوار والجدل. فالحوار يعني وجود طرفين مختلفين حول فهم مسألة ما بحيث يقدّم كلّ منهما رأيه فيها وفق ما عنده من براهين وأدلّة بهدف عرض الرأي، وتجلية الحقيقة دون إلزام الآخر بالرأي المقابل ومحاولة احتوائه. وبهذا فهم الحوار على أنّه حضاري في تفكيره، موضوعي في منهجه، إنساني في أخلاقه، لتوقفه عند توضيح الحقيقة بعيدا عن هيمنة الخلفية الفكرية والموروث الثقافي.

ويعود التركيز على الحوار في العقود الأخيرة من القرن العشرين إلى الرغبة في دخول القرن القادم بدون مركّبات، ولنتجاوز به جميع الخلافات المذهبيّة والدينيّة.

إنّ تركيز الفكر المعاصر على مصطلح الحوار من أجل تحقيق هذه الغاية هو تطوّر إيجابي لمضمون كلمة الجدل، فالحوار هو في مقابل الجدل. لهذا كان الجدل يعني الخصومة والغلبة. وقد استعمل المصطلح في فكرنا المعاصر ليدلّ على المنازعات الكلاميّة التّي يهدف كلّ طرف فيها إلى فرض رأيه وتقديم نفسه كبديل عن الآخر. لهذا كان الجدل بعيدا عن الحقيقة، مجانبا للموضوعيّة، رافضا للآخر. فهو صورة للتعصّب والانغلاق لما تولّد عنه من صراع وعداء خاصّة بين المسلمين والآخر لأنّ المسلم التقليدي حسب الشائع يرفض كلّ انفتاح، أمّا اليوم وقد تطوّر مستوانا الثقافي ونضج فكرنا فإنّنا خرجنا من ظلمة الجدل إلى نعمة الحوار.

إنّ الاهتمام بالحوار بين الأديان اليوم يتطلّع إلى محو الصورة المشوّهة التّي طبعت العلاقات بين المجتمعات وخاصّة منها العلاقة بين الإسلام

والمسيحيّة التّي تأثرت بموروث ثقافي مريض. يكفي هنا أن تستدلّ بما عبّر به المفكر الروسي جورافسكي الذي كشف عن القوالب النمطية التّي تناقلتها ثقافاتنا عدّة قرون من أجل تشويه الآخر فهو يقول : «إنّ أدب أروبا القرون الوسطى حول الإسلام وضع في غالبه من طرف رجال الدّين المسيحيّين الذين استندوا إلى مصادر شديدة التمايز والتباين كالحكايات الشعبيّة وقصص الأبطال والحجّاج، وكانت المعلومات المقدّمة تنتزع في معظم الحالات من سياقها الأصلي ثمّ تقدّم إلى القارىء الأروبي، وبهذا الشكل شوّهت الوقائع بصورة متعمّدة» [7].

وعن المسيحيّة في نظر المسلمين يقول : «إنّ المسلمين ليسوا فقط لا يعرفون شيئا عن عقيدة المسيحيّين ولكنّهم حتّى لا يحاولون أن يعرفوها»[8]. وفق هذه النظرة المشوّهة والمنقوصة لحقيقة جوهر الديانتين المسيحيّة والإسلام وفي ظلّ التعصّب للموقف بدأ الجدل الديني وبدأت معه المواجهة الفكرية والماديّة. هذا ما جعل نمطا من فكرنا المعاصر يسعى جاهدا لإبدال الصورة القاتمة التّي ميّزت العلاقة بين المسيحيّين والمسلمين فيما قبل القرن العشرين بصورة أخرى مشرقة ومتفائلة تقوم على المحبّة والاحترام، وتبادل المنافع، بعيدا عن خلافات فرضتها ظروف معيّنة.

رغم كثرة الحوارات وتتابعها وانتشارها على مساحات واسعة فإنّها ما زالت بعيدة عن هدفها ومقصدها للأسباب التالية :

* إنّ الحوار بين الأديان اليوم يغلب عليه التكلّف لافتقاده إلى صدق المشاعر ممّا جعل هذا الحوار شبيها بحوار الآلة التّي لا يزيد دورها عن التذكير بالمعلومة المخزونة بحافظتها.

---

(7) اليكسي جورافسكي، الإسلام والمسيحيّة. ترجمة خلف محمد الجواد. سلسلة عالم المعرفة عدد 215 عام 1996 ص 69.

(8) المرجع نفسه ص 40.

* عدم الإعداد النفسي للحوار على الأقلّ من جانب المفكّر المسلم، لأنّنا وإن حرصنا على الحوار مع الآخر فإنّنا لا نعرف عنه إلاّ القليل في أحسن الحالات.

* إنّ الحوار لا يحقّق أهدافه إلاّ بقبول كلّ طرف من المتحاورين للآخر قبولا تامّا على انّه يساويه في الاعتبار حتّى لا يكون حوار الغالب مع المغلوب، وحوار من يظنّ نفسه مركز الحضارة والعلم والتقدّم مع من هو على الهامش.

* الحوار الناجح هو الذي يعترف فيه كلّ طرف بخصوصيّات الآخر بما في ذلك الدينيّة منها، فالمثقف المسلم يعترف باليهوديّة والمسيحيّة ويعترف بموسى وعيسى والمحاور الآخر هل يبادله الاعتراف بالإسلام ونبيّه محمّد صلّى الله عليه وسلّم ؟.

* إنّ الحوار اليوم لم يتخلّص من القوالب الجاهزة التّي غرسها فينا الفكر التقليدي الذي ما زال ينظر إلى المسألة بعين واحدة، فالمسلم التقليدي يرفض الحوار مع الآخر لأنّ الإسلام في نظره لا يحتاج إلى غيره، أمّا المسيحي الغربي فيرى أنّه المركز وما سواه هو الهامش.

* إنّ الحوار اليوم هو حوار النخبة لم يستفد منه السواد الأعظم في المجتمعين. لهذا ولكي ينجح الحوار مستقبلا لا بدّ من تجاوز العراقيل الموهومة، لأنّ السبب الحقيقي للاختلاف كامن في نفوسنا لا في نصوصنا ولا في المصطلحات اللغويّة (حوار وجدل) فالحوار لم يكن نتيجة عقم الجدل كما تصوّر مفكرونا اليوم [9] لأنّ الحالة المأسوية التّي كنّا عليها والتّي نحاول اليوم الخروج منها كانت نتيجة عوامل أخرى لم يكن الجدل إلاّ أحد نتائجها في هذا الإطار أردت المشاركة بهذه المداخلة لأبيّن حقيقة المفهوم النبوي للحوار والجدل لأنّه أوّل من أسّس منهج الحوار الهادف الذي

(9) هذا مجمل ما صرّحت به الدّراسات المعاصرة انظر على سبيل المثال مقالات الحوار في اعداد مجلة اسلاميات مسيحيات.

استطاع به أن ينزّل النظريات إلى أرض الواقع، ويقيم المجتمع المتآلف الذي نهدف إلى إيجاده اليوم، المجتمع الذي تحترم فيه خصوصيّات الآخر، ويشارك فيه الجميع من أجل إقامة حياة قوامها الاستقرار والسّلام.

إنّ التربية المحمديّة الداعية إلى التعايش المشترك في ظلّ احترام الخصوصيّات أعطت مجتمعا مثاليّا يميّز بين العدوّ والصديق، وقد نوّه بهذا المجتمع الصديق قبل الشقيق ويكفي هنا الاستدلال بقولين على سبيل المثال لا الحصر.

يقول خودابخش : «إنّ أكبر فرق بين الامبراطورية الإسلامية وبين أروبا التّي كانت كلّها على المسيحيّة في العصور الوسطى وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين أولئك هم أهل الذمّة» [10]. وعن روح التسامح واحترام الآخر حتّى في أيّام الشدّة. يقول المؤرّخ الغربي جون فييه (Fyéé) : «وفي عام 492 هـ / 1099م استولى الصليبيّون على بيت المقدس وأعملوا السيف والسّبي في أهلها وارتكبوا شتّى صنوف الفظائع حتّى في حرم المسجد الأقصى. ولمّا بلغ الخبر أهل بغداد بكى النّاس بالمدينة كلّها، وهبّ الخطباء يستنهضون المؤمنين إلى الجهاد، ولكنّ ثمّة أمر حريّ بالانتباه وهو أنّه لا ذكر لأيّ حادثة ضدّ النصارى لا في تواريخ المسلمين ولا النصارى، وهذا من الأمور التّي لا بدّ من ذكرها» [11]. ثمّ يقول : «لذا لم يتغيّر الموقف المبدئي لفقهاء ذلك العصر من جرّاء الحملات الصليبيّة، فقد ظلّوا يميّزون بين الموقف من نصارى الدّاخل وبين الموقف من نصارى الخارج حتّى أنّ رجلا من أكثر النّاس حمية على الجهاد مثل موفق الدين بن قدامة قد أفتى بوجوب رعاية ذمّة أهل الذمّة» [12].

(10) خودا بخش، الحضارة الإسلاميّة، تر، على الخربوطي، دار إحياء الكتب. ص 112.

(11) جون موريس فييه، أحوال النصارى في خلافة بني العبّاس، دار المشرق لبنان ط 1990.1 ص 315.

(12) المرجع نفسه.

إنّ حملات الفرنجة على الشرق الإسلامي وما خلفته من تقتيل ودمار كانت السبب الحقيقي في تدهور الوضع الاجتماعي بين المسلمين والنصارى، وقد دعت الكنيسة اليوم بتوجيه من قداسة البابا بولس الثاني إلى ضرورة نسيان ما لحق بالمسلمين أيّام الحروب الصليبيّة على الشرق من أجل تحقيق التقارب بين المجتمعين. جاء عن المجمع الفاتكاني الثاني: «يجب علينا كمسيحيّين ونحن نخاطب المسلمين أن نفكّر قبل كلّ شيء في صعوبات وعوائق الحوار والتّي تتعلّق بنا إلى حدّ كبير وإلى المظالم والجور الذي أحاط به الغرب ذو التربية المسيحيّة المسلمين واقتراف ذنوب وآثام عديدة بحقّهم»[13].

إنّ الممارسة النبويّة للحوار مع الآخر وفق التوجيه الإلهي هي التّي أعطت المجتمع النموذج الذي تعايشت فيه جميع الحساسيات الدينيّة في احترام متبادل لم يشهد مثله التاريخ. لهذا لا بدّ من الرجوع بكلّ تواضع لدراسة حقيقة الحوار النبوي بخصوصيّاته ومنهجه حتّى نَطّلِعَ على فنّ الحوار الرّاقي الذي نتطلّع إلى مثله منذ قرون دون أن نبرح نقطة الصفر.

كيف كان الحوار النبوي ؟

II ـ حقيقة الحوار من منظور الوحي النبوي :

إذا كان الحوار المعاصر بعد حوالي نصف قرن لم تتجاوز جهوده مساحة تحديد المفاهيم، والتمييز بين الحوار والجدل، وتحميل الآخر مسؤوليّة عدم تحقيق التفاهم والانسجام فإنّنا نجد الوحي المحمدي تجاوز حدود الدلالة اللغوية لكلمتي الحوار والجدل بتوسيع مجال دلالتهما. فلفظ الحوار ورد في النصّ القرآني في مواضع ثلاثة اثنين منها في حوار بين أخوين أحدهما مؤمن والآخر كافر. قال تعالى : «**وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ**

(13) من اجل حوار إسلامي مسيحي، ص 92 ـ 93.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ... قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً، [14]. والموضع الثالث في صورة المجادلة قال تعالى : **،قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ،** [15].

إنّ لفظ الحوار في المواضع الثلاثة دلّ على معنى الحوار والمجادلة في نفس الوقت. فالأخ الكافر حاور بدافع الكبر والكفر بالعقيدة، وهذه ميزات المجادل، لأنّ هدفه لا يزيد عن محاولة فرض الذات على الآخر. في حين حاوره أخوه المؤمن بهدف المراجعة والتصحيح، وهذه ميزة المحاور. فكان لفظ الحوار في المرّة الأولى يحمل معنى الجدل، وورد في المرّة الثانية بمعناه الحقيقي وفي المرّة الثالثة ذكر لفظ الجدل والحوار. وعبّر بالأوّل عن الخصومة بين المرأة وزوجها، وبالثاني عن المراجعة بينها وبين الرّسول، ولا شكّ أنّ طبيعة الموقفين مختلفة فكان هنا الجدل جدلا والحوار حوارا. كما تكرّر لفظ الجدل في النصّ القرآني بما يخرج به عن معناه اللغوي الضيّق إلى معنى الحوار الهادف والموضوعي. مثل قوله تعالى : **،وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ،** [16] وقوله تعالى : **،وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ،** [17].

إنّ لفظ الجدل في المرّتين حمل معنى الحوار الهادف إلى تحقيق الودّ والتقارب، وفي مرّة أخرى بقي على مفهومه اللغوي الدّال عليه من حبّ للغلبة وإصرار على الباطل قال تعالى : **،وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا**

---

(14) الكهف 37،32/18.

(15) المجادلة : 1/58.

(16) النحل : 125/16.

(17) العنكبوت : 46/26.

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا» [18]. وقال عزّ وجلّ : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ» [19]. ومن هنا نلاحظ أنّ لفظي الحوار والجدل مترادفان فيما وضع لهما من معنى، فكلّ يحمل معنى صاحبه إلى جانب خصوصيّة دلالته، بهذا أعطى الوحي الإلهي لمصطلحي الحوار والجدل معنى أوسع من دلالة اللغة، لأنّ الحكم بالإيجاب أو السلب يرتبط بمضمون ما دار بين الطرفين لهذا مدح القرآن الجدل المحمود النافع وأمر به وذمّ الحوار الموصوف بالكبر وكفر النعمة ونهى عنه.

هذا عن مفهوم الحوار والجدل في مرجعيّة الوحي المحمدي. أمّا عن التطبيق العملي للحوار بين الأديان فإنّه وإن صحب بعثة كلّ الأنبياء فجميعهم حاوروا أقوامهم وسعوا إلى تصحيح عقائدهم، إلاّ أنّ ميزة حوار نبيّنا محمد أنّه خرج بدائرة البلاغ إلى النّاس عامّة، ثمّ أنّه صلّى الله عليه وسلّم وضع الأسس السّليمة لمدرسة الحوار بين الأديان.

إنّ الحوار في الممارسة النبويّة كان في حجم الرسالة التّي كلّف بتبليغها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، لقد بعث في أرض الحجاز حيث كانت مكّة عاصمة دينيّة تشتمل على المشركين والموحدين، لهذا عظمت مهمّة الرسول من أجل إرساء التوحيد وتصحيح صورته. فرغم تعدّد الثقافات وتباين المستويات الفكرية، واختلاف الطباع، وتشعب المصالح، استطاع صلّى الله عليه وسلّم أن يكوّن من هذا الشتات مجتمعا خلّد التاريخ مآثره الفكرية والحضاريّة والأخلاقيّة. ويعود سرّ نجاح الحوار النبوي إلى أنّه كان حوارا موجّها بالوحي الإلهي. أمر تعالى رسوله بتبليغ الدّعوة وإيصال الرسالة إلى الآخر عن طريق الحوار، والحوار لا يحقّق غايته إلاّ إذا اعتمد الحجّة المقنعة، والموعظة الحسنة، هذه القاعدة الذهبيّة

---

(18) الكهف : 18/56.

(19) الحج : 8/22 وانظر النساء : 107/4، 109، الأعراف: 71/7، هود : 32/11، النحل : 111/16.

الأولـــــى التّي عبّر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى : «**أُدْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ**»[20]. ولمزيد التأكيد على سموّ الخلق في نجاح الحوار هيّأ الله رسوله قبل تكليفه بالرسالة فكان كما روت السيّدة عائشة خلقه القرآن[21].

هذا الخلق الرفيع الذي ذكر الله به في قوله تعالى : «**وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**»[22]. والحوار النبوي موجه بنور البصيرة إلى جانب نور العقل قال تعالى : «**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**»[23]. هذا نموذج التوجيه القرآني في إنجاح الحوار في أيّ عصر ومع أيّ طرف. فالحكمة والعقل والموعظة الحسنة والترفع عن المهاترات كلّها آليات ضروريّة في تحقيق التقارب وتجاوز الحواجز.

وبعد تقديم آليات نجاح الحوار ذكّر القرآن نبيّه بحدود مسؤوليّة التّي لا تتجاوز مستوى التبليغ لأنّ الإسلام لم يتنزّل من أجل رفض الآخر بل لهدايته وفي هذا تربية عامّة لمن أراد الدخول في الحوار على أن لا يقدّم نفسه كبديل عن الآخر بل يجب عليه احترام خصوصيّات المخاطب ولو كانت مجانبة للحقّ قال تعالى : «**فَإِنْ أعْرَضُوا فَمَا أرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إنْ عَلَيْكَ إلاَّ البَلاَغُ**»[24]. هذا عن مفهوم الحوار وآلياته في المرجعيّة النبويّة فمن هم أبرز الأطراف المتحاورة مع الرّسول الكريم ؟

(20) النحل : 125/16.

(21) البخاري، الجامع الصحيح ، دار إحياء التراث، كتاب الادب.

(22) آل عمران : 159/3.

(23) يوسف : 108/12.

(24) الشورى : 45/42.

III - أطراف الحوار :

إنّ موضوع الحوار يستوجب أطرافا متحاورة، وهي هنا حوار بين رسول مؤمن يسعى إلى إبراز الحقيقة من جهة، وبين كافر مشرك أو كتابي مغال من جهة أخرى. هذا ما تمّ بين رسول الإسلام محمد بن عبد الله وبين الزعامة الدينيّة. واستعملت هنا مصطلح الزعامة الدينيّة لأنّ الهدف من الحوار وإن بدأ تحت مظلّة الدّفاع عن العقيدة من الطرف الثاني فهو في أصله دفاع عن الذات، ودفاع عن المصالح أو المراكز التّي كانوا يحتلّونها بين أقوامهم. ومن أجل حبّ الزّعامة رفضوا الحّق ودافعوا عن الباطل. وتحديد الأطراف الفاعلة في الحوار مع النبوّة مرتبط بحجم حضور الظاهرة الدينيّة في مكّة والمدينة وما جاورهما. ففي مكّة التّي كانت مركزا دينيّا لعرب الجاهليّة وجدت معتقدات متنوّعة في شكلها واحدة في جوهرها لتعبيرها جميعا عن مظهر الشرك مثل : الوثنيّة التّي تضمّ مختلف المعبودات المحسوسة والقريبة من معتنقيها مثل : الأصنام والأوثان والأنصاب، ومن أبرز آلهة العرب في المنطقة نذكر : هبل [25] واللاّت [26] والعزّى [27] وذات أنواط [28] إلى جانب هذه الآلهة الرئيسيّة كان بمكّة آلهة أخرى متفاوتة في عظمتها بتفاوت عظمة القبيلة التّي كانت تعبده. روى البخاري عن ابن عبّاس قال : «دخل صلّى الله عليه وسلّم يوم الفتح فوجد حول الكعبة ثلاثمائة وستّين صنما» [29] وذكر القرآن أشهر آلهة قريش في مواضع من الذكر مثل قوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ

---

(25) هبل هو صنم جاء به عمرو بن لحي من بلاد الشام.

(26) اللاّت هو (نصب) صخرة تنسب إلى رجل كان يلتّ عليها السويق للحجاج.

(27) العزّى : قيل هو صنم عظيم وقيل هو ثلاث نخلات كان يحل بها الربّ عند المشركين شتاء.

(28) ذات أنواط : هي شجرة عظيمة كانت تقدّس في الجاهليّة.

(29) البخاري، الجامع الصحيح، باب غزوة الفتح : 188/5.

الأخْـرَى» [30]. وقـال : «**أتَدْعُـونَ بَعْـلاً وَتَذَرُونَ أحْسَنَ الخَـالِقِينَ**» [31]. وبعل هذا هو الصنم هبل الوافد من بلاد الشام.

ومع عبادة الأصنام وجد مظهر آخر ينضمّ إلى الشرك هو الصابئة وكذلك المجوسية قال تعالى : «**إنّ الّذينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هَادُوا والصّابِئِينَ والنّصَـارَى وَالمَجُوسَ وَالّـذِينَ أشْـرَكُـوا إنّ اللّهَ يَفْـصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ**» [32]. إلى جانب هـذه الظواهر التّي يمثلها جميعا زعماء الشرك كطرف رئيسي في الحوار المكّي توجد معتقدات سماويّة كالحنيفيّة الإبراهيميّة التّي قال فيها تعالى : «**قُلْ بَلْ مِلّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ**» [33].

وكذلك اليهوديّة والنصرانيّة حيث تمركزت الأولى في المدينة وما جاورها واستقرّت الثانية خارج منطقة المواجهة في الحبشة واليمن قال تعالى في ذكر ما يروّجه أهل الكتاب : «**وَقَالَتِ اليَهُـودُ وَالنّصَارَى نَحْنُ أبْنَاءُ اللّهِ وَأحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ**» [34].

وإذا كان من تبقى من الحنيفيّة دخل الدّين الجديد لأنّه لا يتعارض مع جوهر الإبراهيميّة، فإنّ اليهود والنصارى مثلوا طرفا آخر في الحوار مع الرسول وكان الدافع إلى الحوار بعد أن تبيّن لهم صدق الرسالة هو تمسّكهم بحبّ الزعامة، والدّفاع عن المصالح الحياتيّة فأفرزت الساحة النشيطة بالممارسات الدينيّة نوعين من المتحاورين هما : زعماء الشرك ثمّ أهل الكتاب. وقد برز كلّ طرف في مكان تمركزه فكان المشركون في مكّة وأهل الكتاب في المدينة.

---

(30) النجم : 20.19/53.

(31) الصافات : 125/37.

(32) الحج : 17/22.

(33) البقرة : 135/2.

(34) المائدة : 18/5.

* طبيعة مواجهة زعامة الشرك :

أقلقت البعثة النبويّة كبراء المشركين لأنّها جاءتهم بمبادىء تتعارض مع مصالحهم كزعماءفي أقوامهم، لهذا تصدّوا للدّعوة الجديدة بكلّ ثقلهم وانحصرت مواجهتهم - بعد فشلهم في مساومة الرسول بالمال والجاه - في مواجهة فكريّة وأخرى ماديّة تمثّلت الأولى في الحوار الذي أقاموه مع النبوّة وكذلك في المكائد التّي كانوا يحيكونها في منتدياتهم من أجل التصدّي للرسالة حتّى لا يتجاوز أمرها حدود مكّة. فكثفوا من أساليب الطعن والتشكيك في صدق الرسالة داخل مكّة وخارجها. ومن صور المواجهة ما أورده ابن هشام من أنّ الوليد بن المغيرة جمع نفرا من زعماء قريش وقال : «يا معشر قريش إنّه قد حضر هذا الموسم وأنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويردّ قولكم بعضه بعضا. قالوا فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به. قال : بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا : نقول : كاهن. قال : لا والله ما هو بكاهن. قالوا : فنقول : مجنون. قال : لا ما هو بمجنون... قالوا : فنقول : شاعر. قال : ما هو بشاعر... قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس، قال : والله إنّ لقوله لحلاوة وإنّ أصله لعذق وإنّ فرعه لجناة... وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرّق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه [35]». إلى جانب المواجهة الفكريّة المتمثّلة في التخطيط للكيد ضدّ الدعوة المحمّدية في شكل الحوار المباشر الذي سنذكر نموذجا منه على سبيل المثال استخدم كفّار قريش أسلوب المواجهة الماديّة المتمثّلة في الحرب النفسيّة والايذاء البدني ضدّ الرسول وصحبه، وقد ذكرت لنا كتب السيرة والحديث صورا من هذه المواجهة [36] رغم المواجهة القويّة والحصار المحكم تحاور صلّى الله عليه وسلّم مع بعض زعماء قريش بمنطق الحكمة والموعظة الحسنة ومقابلة السيّئة بالحسنة كما سيأتي.

---

(35) ابن هشام السيرة النبوية ط 4، دار الكتاب العربي 1413هـ /1992م. ج 1 ص302 ـ 303.

(36) لمزيد التوسع انظر مثلا سيرة ابن هشام، ج 1 ص324 وما بعدها، 8/2 وما بعدها.

* طبيعة مواجهة أهل الكتاب :

إذا كان مصطلح أهل الكتاب يطلق ليراد به اليهود والنصارى فإنّ المواجهة مع هذ الفريق اختلفت باختلاف طبيعة القوم ومصالحهم فاليهود الذين كانوا متمركزين في المدينة وما جاورها كان لهم موقفان من الدعوة المحمدية.

موقف مع الرسول في مكّة اتّسم بالاعتدال لأنّهم أهل كتاب يَعلمون عن البعثة مالا يعلمه غيرهم. فكانوا مرجعيّة قريش في أمر محمّد[37] وكانوا الحكم بين الطرفين [38]. فكانوا ينظرون إلى البعثة المحمّدية في مكّة على أنّها نصير لهم على الشرك وقد مجّد القرآن هذا الموقف منهم قال تعالى : «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ» [39].

ولمّا انتقلت البعثة المحمّدية إلى المدينة، حيث مركز ثقل اليهود فهم الكثرة فيها وفي ما جاورها، وهم أهل العلم في المنطقة يرجع إليهم في أمور الدين، وهم كذلك المسيطرون على موارد الثروة. شعر اليهود بالخطر لأنّ مضمون الرسالة الجديدة يتعارض مع مصالحهم الدنيوية فكثفوا مقاومتهم ضدّ الإسلام بعد معاهدتهم على قبول العيش المشترك في كنف احترام الخصوصيّات الدينيّة لكلّ فريق.

وعن صور مواجهة اليهود للدّين الجديد في المدينة نجد كذلك نوعين من المواجهة : مواجهة فكريّة تمثّلت في إثارة الشكوك حول صدق الرّسالة ومحاولة إعجاز الرسول بطرح أسئلة لا يعلمها إلاّ الراسخون في العلم

(37) ذكر ابن هشام أنّ زعماء قريش بعثوا إلى احبار اليهود طالبين منهم رايهم في صاحب الدعوة فأجابوهم بأن يسألوهم على ثلاث إن هو اجاب عنها فهو نبيء وإن عجز فهو مدّعي النبوّة والثلاثة هي السؤال عن الرجل الجوال (ذو القرنين وهو ملك يمنيّ صالح) وعن أصحاب الكهف، وعن السّاعة. انظر السيرة : 328/1-329.

(38) قال تعالى على لسان نبيّه وهو يحاور قريش : «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون» الأنبياء : 7/21.

(39) الرعد : 36/13.

بهدف زعزعة العقيدة في نفوس المؤمنين الجدد. ومواجهة ماديّة عبّرت عنها بممارساتهم ضدّ المسلمين [40] وضدّ رسول الله التّي انتهت بالتخطيط لقتله صلّى الله عليه وسلّم [41] أو التآمر مع القبائل المعادية من أجل القضاء على المسلمين والإسلام كما حدث في غزوة الأحزاب حيث خالفوا بنود المعاهدة وحقوق المواطنة فانضمّوا إلى المحاربين والمسلمون في أمسّ الحاجة إلى الاستقرار الدّاخلي والعون على الأعداء، وقد وصف القرآن عداوتهم للمسلمين بقوله تعالى : «**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**» [42].

أمّا النصارى فقد كان مركز حضورهم خارج منطقة المواجهة فهم في الحبشة أو في اليمن لهذا لم تذكر كتب السيرة والحديث عنهم أيّ مواجهة ضدّ نبيّ الإسلام، وهذا يعود إلى طبيعتهم الوديّة مع الآخر، فهم أكثر المحاورين اعتدالا وإيمانا. قال فيهم تعالى : «**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**» [43].

إنّ النصارى وإن لم يدخلوا في مواجهات مع رسول الإسلام إلاّ أنّهم كانوا ضمن المتحاورين مع البعثة النبويّة في مسائل تتّصل بعقائدهم حول السيّد المسيح، وقد فصّل القرآن مجالات الحوار معهم في مواضع كثيرة من الذكر الحكيم.

هذا عن مفهوم الحوار في المرجعيّة النبويّة وأبرز الأطراف المتحاورة مع الرسول فكيف كانت وضعيّة الآخر في الحوار النبوي ؟

(40) كما فعلوا ضدّ مسلمة في سوق قينقاع ممّا أدّى إلى المواجهة المسلّحة. انظر ابن هشام، السيرة : 109/3.

(41) عن تخطيط بني النضير لقتل الرسول صلّى الله عليه وسلّم. انظر السيرة : 204/2.

(42) آل عمران : 118/3.

(43) المائدة : 82/5.

IV - أهميّة حضور الآخر في الحوار النبوي :

بدأ التركيز على احترام الإنسان كذات بشريّة مع الوحي المنزّل على نبيّ الإسلام، فالله هو الخالق للإنسان في أحسن تقويم وهو الذي نفخ فيه من روحه وهو كذلك الذي أمر الملائكة بالسجود احتراما للإنسان الخليفة. قال تعالى : «**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**»[44]. وبعد الخلق وهبه الله مؤهلات بها تميّز عن بقيّة المخلوقات فكان الأولى بتحمّل أمانة الاستخلاف قال تعالى : «**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ**»[45]. وهو المخلوق المكرّم من الله، قال تعالى : «**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**»[46].

إلى جانب هذا الدور المتميّز للإنسان أكّد الإسلام على أهميّة التعدديّة والاختلاف، فالله تعالى قادر على جعل النّاس كلّهم أمّة واحدة لكنّ الحكمة الإلهيّة اقتضت وجود الاختلاف في اللّسان وفي اللّون وفي الدّين، والكون كلّه يقوم على الاختلاف. قال تعالى : «ولو شاء ربّك لجعل النّاس أمّة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربّك ولذلك خلقهم»[47] هذه خصوصيّة الإنسان الذي حاوره الرسول وتجلّى حضور الآخر واحترامه في الحوار النبوي في :

- احترام النبيء للآخر كذات قادرة على التديّن وتتمتّع بحريّة القرار
- التزام مبدأ التسامح مع الآخر
- الانفتاح على الآخر والتعاون معه

---

(44) ص 72/38-71.
(45) الأنعام ، 167/6.
(46) الإسراء ، 70/71.
(47) هود ، 118/11.

* احترام النبيء للآخر كذات بشريّة لها خصوصيّاتها :

من دلالة احترام الآخر في الحوار النبوي خصوصيّة الرسالة المحمّدية التّي جاءت كافّة النّاس من أجل هدايتهم وإرشادهم دون تمييز. خلاف الرسالات السّابقة التّي كانت من أجل هداية الخاصّة من القوم كما جاء في إنجيل مرقس «**وبالأمثال هكذا كان يكلّمهم على حسب ما كانوا يستطيعون سماعه وبغير الأمثال لم يكن يكلّمهم وفي الخلوة كان يفسّر الجميع للتلاميذ**»[48].

أمّا محمّد عليه السلام فقد جاء رحمة للنّاس جميعا. قال تعالى : «**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**»[49]. ولشدّة حرصه صلّى الله عليه وسلّم على هداية النّاس جميعا أنّه كان ينتقل بين القبائل بهدف هدايتهم. قال ابن هشام : «فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله»[50]. وكان يتعرّض من أجل إخراجهم من ظلمة الجاهليّة إلى نور التوحيد - إلى أعنف المواجهة.

ثمّ قال : «فأغروا به صلّى الله عليه وسلّم سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسّحر والكهانة والجنون»[51].

ومن صور احترامه صلّى الله عليه وسلّم للآخر أنّه كان ينظر إلى محاوره كطرف تامّ الحقوق. فكان يجلس إليه، ويسمع منه بكلّ انتباه، ويجيبه عن أسئلته أو يتحاور معه حول مسألة ثمّ يقدّم له رأيه كطرف مماثل دون تأثر بخصوصيّة الرسالة. ثمّ يترك لمحاوره حقّ القبول أو الرفض لأنّ الدين كما علّمه ربّه هو مسألة اختياريّة. قال تعالى : «**وَقُلِ الحَقُّ مِنْ**

---

(48) إنجيل مرقس : 33/4 - 34.

(49) سبأ : 28/34.

(50) المصدر السّابق : 71/2.

(51) المصدر نفسه 319/1.

رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ»[52]. ثمّ قال تعالى : «**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ**»[53]. ومن الأمثلة على حواره مع المشركين حواره مع عتبة بن ربيعة الذي اختاره كفّار قريش ممثلا عنهم، فجلس إلى رسول الله قائلا : يا ابن أخي إنّك منّا حيث قد علمت السّطة (الشرف) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنّك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم... فاسمع منّي أعرض عليك أمورا أنظر فيها لعلّك تقبل منّا بعضها. قال : فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : قل يا أبا الوليد أسمع... حتّى إذا فرغ عتبة ورسول الله يسمع منه قال : «أقد فرغت يا أبا الوليد» ؟ قال : نعم. قال : «فاسمع منّي» قال : افعل. فتلا عليه آيات من سورة فصلت حتّى السجدة ثمّ قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذلك»[54].

ما يمكن ملاحظته في هذا الحوار :

- تقيّد المتحاورين بآداب الحوار من حسن الإصغاء وإظهار المودّة

- حقّ التمسّك بالموقف بعد توضيح المسألة فالرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يقدم نفسه كبديل عن الآخر، ولم يتخل عن مهمّته مقابل ما عرض عليه من مال وجاه وسلطان. وعتبة الذي سمع جواب الرسول وتأثر به حافظ على خصوصيّته كزعيم وممثّل عن الشرك، واتّضح هذا في ردّه على قومه. قال ابن هشام : فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلمّا جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أنّي قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قطّ... يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه...[55].

---

(52) الكهف : 29/18.

(53) البقرة : 256/2.

(54) انظر ابن هشام المصدر السّابق : 323/1.

(55) المصدر نفسه.

وعن احترامه صلّى الله عليه وسلّم لخصوصيّات أهل الكتاب موقفه منهم إجمالا. روى البخاري عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم»[56] واتّضح هذا المبدأ في حواره مع اليهود الذين تعهدوا باتّباع الرسول إن هو أجابهم عن أسئلتهم ثمّ ولّوا عن عهدهم، روى ابن هشام عنهم قولهم : يا محمّد أخبرنا عن أربع نسألك عنهنّ فإن فعلت اتّبعناك وصدّقناك وآمنّا بك. فقال لهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدّقُنّني. قالوا : نعم. قال فاسألوا عمّا بدا لكم، وبعد أن سألوه فيم يشبه الولد أمّه وإنّما النطفة من الرجل ؟... فأخبرنا عن نومك ؟... فأخبرنا عمّا حرّم إسرائيل على نفسه ؟... فأخبرنا عن الروح ؟[57] وكان في كلّ مرّة يجيبهم بمرجعيتهم التّي بها يؤمنون. وبعد اقتناعهم بما أجاب به تخلّصوا من عهدتهم معه مدّعين بأنّ الذي يوحي إليه هو جبريل عليه السلام وهو عدوّ لهم قال ابن هشام : على لسان المتحاورين : «وهل تعلمونه جبريل وهو الذي يأتيني ؟ قالوا : اللّهم نعم ولكنّه يا محمّد لنا عدوّ وهو ملك إنّما يأتي بالشدّة وبسفك الدماء ولولا ذلك لاتّبعناك»[58].

نلاحظ هنا احترام الرسول لليهود رغم مخالفتهم للميثاق. لأنّ الإيمان أو الكفر ليس مفروضا على النّاس في حين لمّا خالفوا ميثاق المدينة حاسبهم على خيانتهم لأنّ الأمر كان يتعلّق بأمر الدنيا والالتزام بواجب المواطنة. هذا عن احترامه لمخالفيه من الذين أساؤوا إليه وإلى المسلمين. أمّا عن احترامه للنصارى من أهل الكتاب ومن الذين أظهروا المودّة منذ البداية، قال تعالى متحدّثا عنهم : «**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ**

(56) البخاري ، الجامع الصحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة. باب لا تسألوا أهل الكتاب : 136/9.

(57) ابن هشام : 184/2 - 185.

(58) المصدر نفسه 185/2.

تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ،[59] فإنّ معاملتهم كانت أرقى لمنزلتهم وحسن تعاملهم. ومن حسن تعامله صلّى الله عليه وسلّم معهم انّه استقبل وفد نجران اليمن بما يليق بمكانتهم وسمح لهم بالدخول إلى مسجده والصلاة فيه قال ابن هشام : رواية عن ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير قال : لمّا قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلّى العصر عليهم ثياب الحبرات... يقول بعض من رآهم من أصحاب النبىء يومئذ ما رأينا وفدا مثلهم وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّون فقال رسول الله : «دعوهم فصلّوا إلى المشرق» [60].

وبعد حوار شيّق أجاب فيه صلّى الله عليه وسلّم عن أسئلتهم حول السيّد المسيح في منظور الرسالة الجديدة طلبوا وقتا للتّشاور قائلين : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثمّ نأتيك بما نريد، وبعد تشاور بينهم اختاروا معاهدة المسلمين على الأمن والسّلم فكان لهم اختيارهم [61]. إنّ احترام الآخر في السيرة النبويّة لم يتوقف عند الأحياء فقط بل احترم الانسان ميّتا كذلك. روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : مرّت بنا جنازة فقام لها النبىء صلّى الله عليه وسلّم وقمنا به فقلنا : يا رسول الله إنّها جنازة يهوديّ. قال : إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها وفي رواية أخرى «أليست نفسا» [62]. نلاحظ ممّا تقدّم أهميّة الآخر في الحوار النبوي فالآخر حاضر :

- كذات بشريّة اختاره الله وأهله بمؤهلات كان بها جديرا بوظيفة الاستخلاف

- حاضر بعقله فاستمع إليه وأسمعه وقبل قراره

(59) المائدة : 83/5.

(60) ابن هشام : 217216/2 بتصرف.

(61) لمزيد التوسّع حول هذا اللقاء انظر ابن هشام المصدر نفسه : 226215/2.

(62) البخاري ، الجامع الصحيح كتاب الجمعة. باب الجنائز : 107/2 ـ 108.

ـ حاضر بخصوصيّته الدينيّة فالرسول حاور المشرك بمضمون عبادته وحاور أهل الكتاب بمضمون كتابهم، ثمّ احترم قرارهم•إنّ احترام الآخر في المنظور الإسلامي يستوجب مبدأ اللّين والتّسامح لهذا كان صلّى الله عليه وسلّم خير مثال للتّسامح مع الآخر رغم ما لقيه من خصومه من ضروب المقاومة والإيذاء النفسي والبدني.
وهذه صور من تسامحه عليه الصّلاة والسّلام.

* **مبدأ التّسامح مع الآخر :**

كان الرسول الكريم المعلّم الأوّل للمسلمين، وكان في توجيهه يربط بين القول والعمل، وحتّى يعطي النّموذج للأخوّة الإنسانيّة التزم صلّى الله عليه وسلّم مبدأ التّسامح مع الآخر ومن صور تسامحه النبوي مع الآخر :

1) **تسامحه مع كفّار قريش :** كان عليه الصّلاة والسلام يطوف مرّة بالبيت وبالقرب منه نفر من كفّار قريش، وكان كلّما مرّ بهم تغامزوا عليه ببعض القول، وفي المرّة الثالثة وقف قائلا : والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح (الهلاك) فخاطبه أحدهم:انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا. فانصرف [63]. الملاحظ هنا أنّه صلّى الله عليه وسلّم لم يدخل معهم في مشاحنات ومهاترات لفظيّة لأنّ الإساءة ليست من طبعه وقد عبّرت عن هذا السيّدة عائشة بقولها : «ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلّم لنفسه في شيء إلاّ أن تنهك حرمة الله فينتقم بها له» [64].

وروي عن أنس بن مالك قال : لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاحشا ولا لعّانا ولا سبّابا» [65]. ومن تسامحه كذلك مع قريش أنّه لمّا أصابهم القحط أتاه أبو سفيان فقال : «يا محمّد إنّ قومك قد

(63) ابن هشام، المصدر السابق : 319/1 ـ 320.
(64) البخاري، المصدر السابق : كتاب الأدب : 37/8.
(65) المصدر نفسه : 18/8.

هلكوا فادع الله أن يكشف عنهم فدعا ربّه فكشف عنهم»[66]. ومن تسامحه كذلك أنّه عفا عنهم في فتح مكّة حين خاطبهم قائلا : «يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعل بكم ؟ قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم. قال : فاذهبوا فأنتم الطلقاء»[67].

2) ـ تسامحه مع اليهود : من تسامحه مع اليهود أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا فتحت خيبر أهديت له شاة فيها سمّ فقال رسول الله اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود فجمعوا فقال لهم : «هل جعلتم في هذه الشاة سمّا ؟ فقالوا نعم : فقال : ما حملكم على ذلك ؟ قالوا أردنا إن كنت كذابا نستريح منك وإن كنت نبيّا لم يضرّك»[68].

إنّ مبدأ التسامح في حدود الحفاظ على الخصوصيّة أصل من أصول الإسلام علّمه تعالى لرسوله حتّى يكون منهجا سلوكيّا لعامّة المؤمنين بالرسالة، فيبيّن تعالى أنّ جميع النّاس إخوة في الإنسانيّة متساوون في الكرامة، خلقوا للتعارف والتعاون. قال تعالى : **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»**[69]. والتّسامح واجب إسلامي فلا يحقّ لمسلم أن يؤذي الآخر ما لم تصدر عنه الإذاية. قال تعالى : **«لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»**[70]. هذه دعوة صريحة إلى عامّة المسلمين ليحترموا الآخر حتّى وإن خالفهم في العقيدة، لأنّ الدّين من أوكد الخصوصيّات لا يمكن أن يكره عليه الإنسان. فالله وحده الذي له حقّ محاسبة خلقه على

---

(66) المصدر نفسه : كتاب التفسير : 164/6 ـ 165.

(67) ابن هشام، المصدر السابق : 54/4 ـ 55.

(68) البخاري، المصدر السابق: كتاب الطبّ : 180/7.

(69) الحجرات : 13/49.

(70) الممتحنة : 8/60.

إيمانهم أو كفرهم ولأنّ حكمة التكليف تتجلّى في الاختلاف. قال تعالى : «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» (71).

لهذا اكتفى صلّى الله عليه وسلّم بالتبليغ والبيان، أوكل أمر الإيمان أو الكفر إلى رغبة الإنسان . قال تعالى : «لا إكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ» (72). هذه صورة من تسامحه صلّى الله عليه وسلّم مع الآخر الذي بواسطته تمكّن من إقامة مجتمع مختلف في عقائده وفي أفكاره، لا يجمع بين وحداته إلاّ الصالح المشترك. إنّ المجتمع الذي أقامه صلّى الله عليه وسلّم في المدينة يدلّ على طبيعة انفتاح المسلمين على الآخر فإلى أيّ حدّ تحقّق هذا المبدأ في المنظور الإسلامي.

V ـ التزام الرسول بمبدأ الانفتاح على الآخر :

أكّد القرآن الكريم على أهميّة الاجتماع البشري لما فيه من تبادل المنافع وتحقيق التكامل، وعلى أساس الاستفادة من الآخر قامت الحضارات، والحضارة الإسلاميّة صورة معبّرة على أهميّة حضور الآخر في بناء المجتمع المتعاون. قال تعالى : «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ» (73). ثمّ قال : «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ» (74).

واختلاف النّاس في عقائدهم لا يمنع تعاونهم. قال تعالى : «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (75).

---

(71) البقرة : 213/2.

(72) البقرة : 256/2.

(73) الروم : 22/30.

(74) المائدة : 48/5.

(75) التغابن : 2/64.

إلى جانب الحوار من أجل تصحيح العقيدة بوحدانيّة الله والخروج بالنّاس من عبوديّة الأوثان والشرك إلى عبوديّة الواحد القهّار أقام محمّد بن عبد الله علاقة وديّة بين فئات مجتمعه ومع أجواره. ومن صور انفتاحه صلّى الله عليه وسلّم على الآخر داخل مجتمع المدينة وخارجه :

- إقامة معاهدة بين المهاجرين والأنصار تحدّد حقوقهم وواجباتهم
- إجراء مواعدة بين المسلمين في المدينة واليهود وكانت هذه أوّل خطوة سجلت الانفتاح العملي مع غير المسلمين وضبطت هذه المواعدة حقوق اليهود وواجباتهم في المدينة وضواحيها ومن أهمّ ما نصّت عليه :

* التزام المسلمين بإقامة العدل مع اليهود.

* التزام المسلمين بالدّفاع عن اليهود كما يدافعون عن أنفسهم من أجل حماية الوطن المشترك.

* احترام المسلمين للمعاهدات الموجودة بين اليهود وغيرهم.

* التزام اليهود بالمشاركة في تمويل نفقات الدّفاع المشترك.

* التزام اليهود بعدم إجراء معاهدات مع أعداء المسلمين.

* احترام كلّ من المسلمين واليهود خصوصيّات الآخر وعدم إلحاق الإذاية به.

* تحميل المسؤوليّة التّامة لكلّ من يخرج على بنود المواعدة [76].

---

(76) لمزيد التوسع حول مضمون الوثيقة انظر:
- أكرم ضياء العمري: المجتمع المدني في عهد النبوّة ط1 دار إحياء التراث.
- ابن هشام ، 186،148،146/2.

بعد هذه الخطوة الهامّة في بناء الصفّ الداخلي توجّه الرسول إلى أجواره فأقام معاهدة صلح مع المشركين رأى فيها المسلمون نصرا لقريش ورأى فيها الرسول مستقبلا للمسلمين، وعبّر هذا الصلح عن مدى احترام الرسول صلّى الله عليه وسلّم لخصوصيّات الآخر. فتنازل لمحاوره عن بعض ما ألفه المسلمون كإبدال البسملة بما كان معروفا عند قريش: «باسمك اللّهم». وعوّض عبارة محمد رسول الله بـ «محمّد بن عبد الله». والرسول يرى أنّ هذا التنازل لا يساوي تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمعين، ومن أهمّ ما نصّ عليه الصلح:

- العهد على وضع الحرب عشر سنين يأمن فيهنّ النّاس ويكفّ بعضهم على إذاية الآخر [77].
- إجراء معاهدات مع القبائل المجاورة من غير قريش [78] من أجل إقامة الأمن والسلم وتبادل المنافع المشتركة.
- توجيه سفراء إلى الدول المجاورة كدولة الرّوم والحبشة وفارس من أجل إبلاغ الرسالة وتحقيق السّلام [79].

ومن صور تعامله صلّى الله عليه وسلّم مع الآخر من أجل تواصل المنافع وكسب ودّ الأعداء له:

- أنّه استأجر في هجرته دليلا من بني الديلم وكان على الشرك [80].
- أنّه عامل أهل خيبر من اليهود بشطر ما يخرج من الأرض [81].
- أنّه اقترض من يهودي ورهن عنده درعا له [82].

---

(77) انظر نصّ المعاهدة مفصلا في ابن هشام: 255/3 - 273.

(78) انظر عن المعاهدات مع القبائل من أجل تبادل السلم والأمن: محمد حميد الله مجموع الوثائق السياسة للعهد النبوي ط9 ودار النفائس 1987 بيروت ص119 - 120.

(79) انظرمجموع الوثائق السياسيّة للعهد النبوي ص 103 وما بعدها.

(80) البخاري، المصدر السابق كتاب الوكالة: 116/3.

(81) المصدر نفسه: 117/3.

(82) المصدر نفسه باب حدّثنا: 19/6

- أنّه اشترى من مشرك شاة[83].

هذه عيّنات من انفتاحه صلّى الله عليه وسلّم على الآخر من أجل تحقيق التعاون المشترك، وتبادل المصالح، وإقامة الأمن والسّلم بين الأفراد والجماعات. إنّ نجاح الرسول الكريم في إقامة مجتمع تعايشت فيه جميع الأطراف في كنف الأمن والاستقرار وتبادل الشعور بالمودّة وحسن الجوار يعود إلى سلامة المنهج الذي اتّبعه في حواره مع الآخر مهما كان تعنّته وصلفه حتّى يعلّم المسلمين خاصّة والإنسانيّة عامّة أنّه لا تقارب إلاّ بتزكية النفس من التعصّب الأعمى. لأنّ الحقيقة للجميع ليس لأحد حقّ احتكارها وأنّ الله لحكمة شاءها، خلقنا مختلفين في ألسنتنا وألواننا ومناهج تفكيرنا وفي درجات إيماننا وكفرنا.

وقبل إنهاء هذه المداخلة أريد أن أعرّج على أبرز خصائص المنهج النبوي في حواره مع الآخر من أجل بناء مجتمع التّعاون والسلم.

IV - خصوصيّة المنهج النبوي في حواره مع الآخر :

إنّ نجاح الرسالة الإسلاميّة في الانتشار الواسع يعود بالأساس إلى طبيعة الدّين الإسلامي الذي من أبرز خصائصه الانفتاح على الآخر، والتعايش معه في كنف احترام الخصوصيّات. لهذا أعلم تعالى رسوله في أكثر من موضع من كتابه الكريم أنّ مهمّته تتوقّف عند البلاغ لأنّ لكلّ إنسان مؤهلات بها يختار ما يريد وكيف يريد.

ويعود نجاح عالميّة الرّسالة كذلك إلى المنهج النبوي في التبليغ والتّعامل مع الآخر ممّا جعل الآخر يفضّل العيش مع المسلمين عوضا عن بني ملّته، كما حدث مع نصارى بلاد الشام لمّا قدم الرّوم لحرب المسلمين الفاتحين : جاء في كتاب الخراج : «لمّا رأى أهل الذمّة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشدّاء على عدوّ المسلمين وعونا للمسلمين على أعدائهم، فبعث أهل كلّ مدينة ممّن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين

(83) المصدر نفسه كتاب البيوع : 105/3.

رجالا من قبلهم يتحسّسون الأخبار عن الرّوم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا. فأتى أهل كلّ مدينة رسلهم يخبرونهم بأنّ الرّوم قد جمعوا جمعا لم ير مثله، فأتى رؤساء كلّ مدينة إلى الأمير الذي خلّفه أبو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك، ولمّا تعاقبت الأخبار على أبي عبيدة طلب من ولاّته في مناطق المواجهة إرجاع ما أخذوه من أهل الذمّة لأنّه لم يعد بإمكان المسلمين حمايتهم»[84]. وجاء كذلك عن موقف النصارى من أهل الذمّة قولهم : «ردّكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردّوا علينا شيئا»[85]. وقولهم كذلك : «لولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا ممّا كنّا فيه من الظلم والغشم، ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عاملكم»[86].

كما عبّر عن حسن تعامل المسلمين مع أهالي البلدان المفتوحة قوستاف لوبون بقوله : «والحقّ أنّ الأمم لم تعرف فاتحين راحمين مسالمين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم» ثمّ يقول : «أنّه هو الدّين الوحيد الذي لم يعرض بالقوّة بل أقبل النّاس على اعتناقه بإرادتهم واختيارهم»[87]. إنّ هذا المستوى الرّاقي من حسن الجوار واحترام الآخر يدلّ على سلامة المنهج التربوي في حوار الرسول مع أهل الأديان الأخرى. وبالرّجوع إلى مضمون جلسات الحوار النبوي نستطيع تكوين صورة متكاملة عن المنهج المتّبع في الحوار مع الزعامة الدينيّة ويمكن تلخيصه فيما يلي :

1) - إنّه حوار واقعيّ : اهتمّ صلّى الله عليه وسلّم بقضايا الواقع فكانت طبيعة مجتمع مكّة مختلفة عن مجتمع المدينة، ففي مكّة سادت عقيدة الشرك فكان تقويم الإيمان من أوكد الضرورات، فاهتمّ صلّى الله عليه وسلّم في مكّة طيلة ما يزيد عن ثلاثة عشر عاما بتصحيح

---

(84) أبو يوسف القاضي يعقوب، كتاب الخراج ط4 القاهرة 1392 ص 149 - 150.

(85) المصدر نفسه.

(86) البلاذري، فتوح البلدان، عبد الله أنيس دار النشر للجامعين ص 143.

(87) قوستاف ليون، حضارة العرب، تر. عادل زعيتر، دار إحياء الكتب ص 15 - 16.

مفهوم التوحيد، ولمّا انتقل إلى المدينة كان عامّة سكّانها من اليهود وكانوا موحّدين فالتفت إلى تصويب بعض المفاهيم وأجاب عن كثير من أسئلتهم وحرص على بناء المجتمع المتكامل.

2) - إنّه حوار يعتمد الاستدلال : نظرا إلى اختلاف طبائع المتحاور معهم عمد صلّى الله عليه وسلّم إلى تنويع طرق الاستدلال، فهناك من نهضت فطرته فآمن وصدّق، ومنهم من احتجّ بموروثه الثقافي والدّيني، وبعضهم جادل بالعقل. وقد عبّر الرّسول عن هذا التباين في الطّبائع والاختلاف في وجهات النظر بقوله صلّى الله عليه وسلّم : «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها النّاس، فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنّما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم»[88]. ويمكن تلخيص منهج الاستدلال فيما يلي :

- منهج يركز على استنهاض الفطرة.
- منهج يركز على استدعاء التاريخ وتقويم الموروث.
- منهج يركز على حجّة العقل.

أ - إنّه حوار لاستنهاض الفطرة : إنّ الفطرة السليمة هي الإحساس الصّادق الذي يشعر به الإنسان عندما يتبيّن له الحقّ فيميل إليه. والإحساس الفطري توصّل إليه المهتدون قبل بلوغ الدّعوة، فكان الميل إلى إيجاد المعبود مسعى الإنسانيّة في مختلف مراحلها. ومن صور الفطرة السّليمة في عرب الجاهليّة ما رواه ابن إسحاق قال : اجتمعت قريش يوما في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظّمونه وينحرون له

---

(88) البخاري، الجامع الصحيح بشرح ابن حجر حديث 79 كتاب العلم، 175/1.

ويعكفون عنده فخلص منهم أربعة نفر قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكتم بعضكم على بعض. قالوا أجل... فقال بعضهم لبعض : تعلّموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضرّ ولا ينفع ؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم فإنّكم والله ما أنتم على شيء فتفرّقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم» [89].

ومن صور تركيزه صلّى الله عليه وسلّم على استيقاظ الفطرة الإنسانيّة ما خاطب به زعماء قريش في حواره معهم عندما عرضوا عليه المال والجاه قال لهم : «ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكنّ الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل عليّ كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا نذيرا» [90]. كان جوابه هذا عليه الصلاة والسلام من أجل استنهاض الفطرة النائمة لأنّ ما تستريح إليه النفس يتجاوز كلّ ما هو مادي. فالمال والجاه والسلطان لا يساوي شيئا أمام معرفة الله والتّصديق به والعمل بما يرضيه. وبهذا النوع من الحوار هناك من اهتدى وآمن وهناك من ضلّ وكفر ومثل هذا الأخير ما عبّر به عبد الله بن أبي أميّة (وهو ابن عمّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم). قال : «فوالله لا نؤمن بك أبدا حتّى تتخذ إلى السماء سلّما ثمّ ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتّى تأتيها ثمّ تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنّك كما تقول وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنّي أصدّقك» [91].

كما خاطب اليهود مستنهضا جانب الفطرة فيهم قائلا : «يا معشر يهود اتّقوا الله وأسلموا فوالله إنّكم لتعلمون أنّ الذي جئتكم به لحقّ. قالوا : ما نعرف ذلك يا محمّد فجحدوا ما عرفوا وأصرّوا على

(89) ابن هشام ، 251/1 - 252.
(90) المصدر نفسه ، 324/1 - 325.
(91) المصدر نفسه ، 1/326.

الكفر»[92]. كما خاطب اليهود والنصارى في حوار مشترك قال فيه اليهود : أتريد منّا يا محمّد أن نعبدك كما يعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ وقال رجل من نصارى نجران : أوذاك تريد منّا يا محمّد وإليه تدعونا ؟. أجابهم الرسول : «معاذ الله أن أعبد غير الله أو آمر بعبادة غيره فما بذلك بعثني الله ولا أمرني به»[93].

هذه نماذج من حواره صلّى الله عليه وسلّم ركز فيها على مخاطبة الفطرة الكامنة في النفوس والتّي لا تتجلّى لتعبّر عن مرادها إلاّ إذا تخلّص الإنسان من هيمنة المادّة، والتمسّك بالجاه، من أجل ذلك كان أكثر المعارضين لكلّ الأنبياء من المترفين الذين أعمت المصالح الحياتيّة بصيرتهم وطمست فطرتهم المحبّة لتوحيد الله. قال تعالى في هؤلاء : «**وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**»[94].

ب ـ استحضار التاريخ وإصلاح الموروث : احتجّ أطراف الحوار من مشركين وأهل كتاب في حوارهم مع رسول الإسلام بمرجعيّتهم الدينيّة والثقافيّة، فهم على دين آبائهم ومن أهمّ ما استدلّ به الطرفان أنّهم على دين إبراهيم. فالعرب ادّعوا أنّهم على دين آبائهم، وآباؤهم الأوّل هم ذريّة إبراهيم وكانوا موحدين. روي عن زيد بن عمرو بن نفيل أنّه أسند ظهره يوما إلى الكعبة ثمّ قال : «يا معشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري»[95]. إنّ عبادة العرب

(92) المصدر نفسه : 202/2.

(93) المصدر نفسه : 195/2.

(94) الزخرف : 23/43.

(95) الأب جرجس، أديان العرب قبل الإسلام ط2 المؤسّسة الجامعيّة للتوزيع والنشر 1408هـ/1988م. ص 192.

للأوثان والأصنام تتعارض مع عبادة إبراهيم وذريّته أعني الحنيفية السمحة لهذا ذكّرهم الرسول بعبادة آبائهم بقوله تعالى : «**قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**»[96].

كما استدلّ اليهود والنصارى بأنّهم على الإبراهيميّة[97] فاليهود زعموا أنّ إبراهيم كان يهوديّا وكذلك ادّعى النصارى فصوّب الرسول خطأهم بأنّ إبراهيم كان قبل اليهوديّة. كما ردّ على النصارى بأنّ إبراهيم كان حنيفا مسلما. فأجابهم بلسان القرآن. قال تعالى : «**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**»[98].

ج ـ الاستدلال بحجّة العقل : اهتمّ رسول الإسلام في حواره مع المشركين وأهل الكتاب بالتركيز على حجّة العقل والمنطق، فخاطب عقولهم لأنّها أداة الوعي والتمييز في الإنسان، والعقل ملك للجميع باستطاعة كلّ طرف استخدامه للحكم على الأشياء. وقد برز دورالعقل في رفض ظاهرة الشرك عند من استقلت عقولهم عن أهوائهم من ذلك ما روى عن زيد بن نفيل من أنّه لم يدخل في اليهوديّة ولا النصرانيّة وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان، وحرّم على نفسه الميتة والدّم والذبائح التّي تذبح على الأوثان[99]. ومن صور تركيزه على حجّة العقل في حواره مع

---

(96) البقرة : 135/2.

(97) من النصوص التوراتية المهتمّة بإبراهيم مثلا :

ـ في ذلك اليوم قطع الربّ مع أبرم ميثاقا قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات. (التكوين : 19/15).

وقال أيضا لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب... (الخروج : 16/3).

ومن النصوص المستدلّ بها عند النصارى مثلا :

ـ كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم ...(متى 1/1).

ـ فإن كنتم للمسيح فأنتم إذا من نسل إبراهيم... (رسالة بولس إلى غلاطية 29/3).

(98) آل عمران : 67/3.

(99) انظر ابن هشام، المصدر السابق : 253/1، البخاري، الجامع الصحيح كتاب المناقب 233/4.

المشركين أنّه وجّه عقولهم إلى التأمّل والتدبر للمقارنة بين الإله الحقّ وبين ما يعبدون، والقرآن حافل بمخاطبة عقول المجادلين في مختلف مجالات العقيدة. من ذلك حواره مع عتبة بن ربيعة عندما تلا عليه مطلع سورة فصّلت حتّى السجدة (38 آية) فتمعّن السامع مضمون الخطاب واقتنع بقوّة الحجّة فطلب من قريش أن تخلي بينها وبين محمّد [100]. ومن حواره العقلي مع أهل الكتاب محاجّته لنصارى نجران اليمن في شأن عيسى عليه السلام وقد أورد الرازي نصّا مطوّلا لهذا الحوار نذكر منه :

قال الرسول : ألستم تعلمون أنّ الله حيّ لا يموت وأنّ عيسى يأتي عليه الموت.

قالوا : بلى.

قال : ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلاّ ويشبه أباه ؟

قالوا : بلى.

قال : ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم على كلّ شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه فهل يملك عيسى شيئا من ذلك ؟

قالوا : لا.

قال : هل تعلمون أنّ ربّنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث، وتعلمون أنّ عيسى حملته امرأة كحمل المرأة، ووضعته كوضع المرأة، ثمّ كان يطعم الطعام، ويشرب الشراب، ويحدث الحدث.

قالوا : بلى [101].

هذه عيّنات من حواره صلّى الله عليه وسلّم في إحياء الفطرة وتصحيح الموروث، والاعتماد على العقل، وهي جميعا أدوات منطقيّة تستعمل في انجاح الحوار بين الأديان وقد استعمل بعضها أو كلّها في

---

(100) ابن هشام، المصدر نفسه : 323/1.

(101) انظر نصّ المحاورة مطوّلا في تفسير الرازي، ط3 دار إحياء التراث العربي بيروت : 155/7.

حوار المسلمين مع غيرهم من أهل الأديان. لكن الذي تميّز به صلّى الله عليه وسلّم عن غيره من المحاورين والذي نحن في أشدّ الحاجة إليه اليوم هو البعد الأخلاقي والسّلوكي في التأثير الإيجابي على الآخر فكيف تجلّى هذا البعد في التأثير على الآخر.

VII - نجاح البعد الخلقي في الحوار مع الآخر والتأثير عليه :

أدّب الله رسوله وأعدّه لتبليغ رسالة كونيّة خاطب بها جميع الأجناس ومختلف الشعوب، فكان إقناعه صلّى الله عليه وسلّم بحسن الخلق أكثر من تأثيره بحجّة المنطق وصدق العبارة. ومن صور نجاح الخلق النبوي في التأثير على مخالفيه نذكر ما يلي :

روى البخاري عن أبي هريرة قال : «بعث النبيء صلّى الله عليه وسلّم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد فخرج إليه النبيء صلّى الله عليه وسلّم فقال : ما عندك يا ثمامة ؟ قال : عندي خير يا محمّد إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. (وبعد ثلاثة أيّام) قال صلّى الله عليه وسلّم : أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثمّ دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلاّ الله واشهد أنّ محمّدا رسول الله. يا محمّد والله ما كان على وجه الأرض أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك فأصبح دينك أحبّ الدّين إليّ...»[102].

(102) البخاري، الجامع الصحيح باب وفد بني حنيفة : 214/5.

وعن أنس بن مالك قال : «كنت أمشي مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابيّ فجذب برادئه جذبة شديدة... ثمّ قال : يا محمّد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثمّ أمر له بعطاء»[103].

ومن دعوته الصّريحة إلى الرّفق بالآخر ما روي عن السّيدة عائشة قالت : «دخل رهط من اليهود على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقالوا : السّام عليكم. قالت عائشة ففهمتها فقلت وعليكم السّام واللّعنة. قالت فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : مهلا يا عائشة، إنّ الله يحبّ الرّفق في الأمر كلّه»[104]. هذه طبيعة الخلق النبوي التّي كانت سببا في الاهتداء والاقتداء به صلّى الله عليه وسلّم. وقد أكّد صاحب الرسالة على أهميّة حسن الخلق مع الآخر. قال عليه الصّلاة والسّلام فيما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : لم يكن النبيء صلّى الله عليه وسلّم فاحشا ولا متفحشا وكان يقول إنّ من خياركم أحسنكم أخلاقا»[105].

وروت السّيدة عائشة عن رسول الله أنّه قال : «يا عائشة متى عهدتني فحاشا إنّ شرّ النّاس منزلة يوم القيامة من تركه النّاس اتّقاء شرّه»[106].

هذه عيّنات قليلة من خلق رسول الإسلام الذي ترفّع عن مستوى مخالفيه من المحاورين الذين دخلوا معه في المهاترات الكلاميّة فكان ردّه عليهم بمستوى خلق الأنبياء الذين كانوا جميعا قدوة حسنة قولا وعملا.

(103) البخاري، المصدر نفسه كتاب الأدب : 29/8.

(104) المصدر نفسه : 14/8.

(105) المصدر نفسه كتاب بدء الخلق : 230/4.

(106) المصدر نفسه كتاب الأدب : 15/8 - 16.

إنّ مجتمعاتنا الإنسانيّة الرّاغبة في الحوار والتّقارب اليوم إذا أرادت أن تحقّق التّقارب العملي، يجب عليها أن تقف وقفة تأمّل، تراجع فيها ذاتها، واختياراتها، ومناهجها، وأن تكون متحليّة بأخلاق أنبيائها الذين كانوا جميعا مثال الترفّع عن أسباب الاختلاف والفتنة، وقدوة حسنة لقبول الآخر واحترامه لأنّ الإنسانيّة أوّلا وآخرا أمّة واحدة في نشأتها وفي رسالتها، فالجميع خلقوا من أصل واحد ومن أجل تحقيق رسالة الاستخلاف التّي لا تكون إلاّ بالتّعاون المشترك وتجاوز الخلافات الدينيّة والمذهبيّة. قال تعالى: «**وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ**»[107]. ونبّه تعالى إلى أنّ تغيير المجتمعات نحو الأفضل لا يكون إلاّ بتغيير النفس الأمّارة بالسوء، التّي تقف أمام تحقيق كلّ إرادة خيّرة تسعى إلى الأمن والاستقرار والتّعاون واحترام الإنسان. قال تعالى: «**إنّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**»[108].

(107) المائدة: 2/5.

(108) الرعد: 11/13.